

الفصل: الرابع

وحدة: تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء إلى غاية القرن 19

الأستاذة: حميد الفاتحي

المحاضرة رقم: 6

السنة الجامعية

2021-2020

جامعة ابن طفيل	السنة الجامعية: 2020-2021
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	وحدة: تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء
شعبة التاريخ والحضارة	الأستاذ: حميد الفاتحي
الفصل الرابع	المحاضرة رقم: 6

خامسا: العلاقات الاجتماعية بين المغرب وبلاد السودان الغربي

من ناحية البنيات الاجتماعية يمكن رصد أوجه التشابه والاختلاف بين المغرب والسودان الغربي؛ فقد كانت المجتمعات الإفريقية التي نفذ إليها الإسلام مجتمعات ريفية تربطها صلات حميمية بالأرض وبجميع عناصر البيئة المحيطة بها مباشرة كالمعادن والنباتات والماء والهواء. وبإمكان الباحث أن يجد في هذه الثقافات الريفية المبنية على الرواية الشفهية أوجه الشبه بينها وبين جوانب اجتماعية وثقافية للمجتمعات المغاربية. وهذا لا يعني أن البنيات الاجتماعية للعالم الإسلامي كانت تشبه نظيرتها الإفريقية. فالمجتمعات الإفريقية لم تكن تعرف صورة العائلة الصغيرة المتكونة من رجل وامرأة وأطفال باعتبارها وحدة قائمة بذاتها، بل إن الشكل الأساسي لهذه البنية كان يتمثل في الأسر الكبيرة التي ينحدر أفرادها من جد واحد وتربطهم علاقات القرابة وملكية الأرض ويوحدهم إحساس قوي بالتضامن. وفي غرب إفريقيا تألفت المجتمعات من عدة عناصر اندمج فيها الصيادون مع جامعي الثمار والمزارعين في إطار كيانات محلية، بيد أن المناطق النهرية عرفت أوضاع أكثر تعقيدا، فقد أدى الإنتاج إلى تحقيق فائض سمح بتبادل السلع في حدود مسافات متوسطة¹. وقام البناء الاجتماعي لمملكة غانة، على سبيل المثال، على النظام القبلي شأن غيرها من الإمبراطوريات والممالك التي قامت بالسودان الغربي والأوسط، وساعد قيام حكومة مركزية مسيطرة على إضعاف التنافر بين القبائل². وتقول الباحثة زوليخة بنرمضان إن التطورات السياسية التي شهدتها شعوب السودان الغربي والتي عكسها قيام الممالك وخلق المؤسسات، وأكبتها تطور على مستوى البنيات الاجتماعية، ذلك أن المجتمع السوداني في إطار تفاعله مع الظروف السياسية والدينية والاقتصادية

¹ - ديفيس ويانسينا، إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر: قرون التكوين الخمسة، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث، إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، إشراف محمد الفاسي وإلهريك، منشورات اليونيسكو، بيروت، الطبعة الثانية، 1997م، صص 843-844.
² - طرخان، غانة، ص 68.

الجديدة، أفرز أنماطا مجتمعية لها من الخصوصيات ما جعلها تتميز عن باقي المجتمعات الإنسانية الأخرى. ومن هؤلاء: الحرفيون، والعلماء، والشرفاء، والتجار، والعبيد، واليهود، والمرأة³.

وقد ارتبطت بلاد المغرب وبلاد السودان بعلاقات اجتماعية انبنت على أساس العلاقات الاقتصادية التي ترسخت بين الجانبين على امتداد القرون، وهكذا تكونت في كلا الضفتين جاليات أسهمت في خلق تمازج اجتماعي عن طريق الهجرة والتجارة واستقرت مجموعات من المغاربة على طول محاور الطرق التجارية وتزاوجوا مع الساكنة المحلية، كما حلت مجموعات من السودانيين واستقروا بالمدن المغربية ومنهم من احتل مكانة متدنية في الهرم الاجتماعي، ومن هؤلاء من شارك في الجندية وأصبحت لهم مكانة عليا حيث وصلوا إلى القيادة العسكرية، ويكفي أن نذكر الدور الذي قام به عبيد البخاري في عهد السلطان المولى إسماعيل العلوي وما بعده، كما حصل بعض منهم على منصب الحجابة. ومن جهة أخرى قدمت أفواج من هؤلاء، ضمن الطلبة الأفارقة، إلى عواصم المغرب الكبرى كفاس ونهلو العلم منذ مرحلة مبكرة. ولا شك أن هذا التمازج أفضى إلى نوع من المثاقفة بين المغاربة والأفارقة وهو ما يبدو من خلال مجموعة من العادات والتقاليد.

وقد ترسخت هذه العلاقات على مر القرون حيث إن الجاليات المغربية التي استقرت في السنغال منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد اختلطت مع الساكنة المحلية وتزاوجت معها وأصبحنا أمام عائلات سنغالية تحمل أسماء مغربية... بينما ظل أفراد آخرون على ارتباط بالبلد الأم وكانوا يفضلون العودة إلى المغرب للبحث عن زوجات. ومنذ سنوات الستينيات من القرن العشرين يحتل التبادل الطلابي بين المغرب والسنغال مكانة مهمة، مع ملاحظة أن مغاربة السنغال يحاولون إعادة إنتاج نفس الديناميات الاجتماعية السائدة في المغرب. وفي الاتجاه المعاكس، تترجم العلاقات بين الجانبين من خلال أفواج الطلبة الأفارقة الذين يفدون على الجامعات المغربية، ومجموعات من مريدي الطائفة التجانية، والتجار، والمهنيين، والمهاجرين غير الشرعيين الحاملين أو بالعبور إلى أوروبا أو الذين استهوهم المكوث بالمغرب بحيث أصبح هؤلاء يحتلون رقعة متزايدة ضمن البانوراما الاجتماعية بالمغرب ويدفعون نحو زحزحة مجموعة المسلمين في نظرة المغربي للآخر⁴.

³ - زوليخة بنرمضان، المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5 و10 هـ / 11 و16 م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1436 هـ / 2015 م، صص 277-344.

⁴ - Nazarena Lanza, Liens et échanges, pp.9-10.